التنور

قصة بقلم فؤاد التكرلي

(تخطيطات للدفاع عن النفس غير مكتوب)

صحيح اني لم أقل الحقيقة اول الامر . كتمتها شهرا وبضعة ايام . الا اني كنت موقوفا طيلة تلك الفترة ، والشرف عزيز والانسان لا يعلم متى يجب ان يقول الحقيقة .

سادتي الحكام ، أني بريء من هذه التهمة ، وقد قتلت فرحة زوجة اخي عبدالحمزة لانها كانت زانية . لقد فاجأتها وهي متلبسة بجريمتها فأخذتني العزة العربية وفقدت صوابي ، كما تعلمون ،لان الشرف غال وقد جرت العادة ان يغسل بالدم . لذلك حشوت بندقيتي الصيدية المبرزة امامكم واطلقت عليها النار مرة واحدة وهي بحالة التلبس . اما العشيق.. اسمحوا لي ايها السادة الحكام ان اتكلم من البدء بشأنه .

لم اره معها كما يمكنكم ان تخمنوا . كانت خارجة تلك الفجر من غرفتهم تعد لنا الفطور وهي تلبس دشداشة حمراء منقطة بالابيض ،رأيتها قرب التنور ، تسجره استعدادا لصنع الخبز . قالت لي انها أخطأت وزنت وهي ترغب في الانتحار . ثم بدأت باشعال التنور وتحضير الطلقات كي ترميها فيه وتنتحر ، ففارت الدماء في عروقي ووجهت نحوها البندقية ثم اطلقت النار فارديتها قتيلة . الشرف عزيز ياسادتي الحكام ، ونحن عرب اقحاح لا نستطيع ان نترك العار يمسنا هكذا . لقد اعتدنا أن نقتل الزانية ، جرت العادة الا ندع المخطئة تحيا بيننا . انها وسخ يجب ان يزال . ولقد قالت لي فرحة بنفسها انها خانت زوجها في فراش الزوجية منتهزة فرصة توقيفه من قبل المدير فواعدت عشيقها فجاءها بعد نزول الظلام . اني لم افعل شيئا سوى الدفاع عن عرض العائلة . ان زوجها هو اخي وهي ابنة عمي . ولقد استغلت صغر سنها وجمالها ، لانها في التاسعة عشرة من العمر جميلة الوجه بعينين كالعسل، كي تغري عشيقها ليوافيها في الموعد المشبوه . وهكذا انتهى كل شيء.

اما اختي لامي حليمة فلم تر شيئا . احلف لكم بكتاب الله العظيم. نعم ، لقد كانت معي ، ولكنها لم تشترك باي عمل لانها لم تكن هناك. لقد كانت في جهة اخرى من الدار . ولاجل ان اوضح للمحكمة المحترمة وضع العائلة وطريقة معيشتها اود ان اقول اننا اناس فقراء نسكن جميعا في دار واحدة ذات غرف متعددة مبنية كلها من الطين . في الجهة الشرقية غرفة اخي عبد الحمزة ، تلاصقها غرفة والدتنا ثم غرفة عائلتي. انا شخص متزوج منذ عشر سنوات ولي اربعة اطفال صغار . لقد خدمت في الجيش ورقيت الى رتبة نائب ضابط ، ولم يحكم عليّ من قبل . التنور يقع وسط الحوش ، قريبا من حجرة اختي حليمة . ان لاختي غرفة طينية صغيرة مثل غرفنا تسكن فيها . نسيت ان انور المحكمة عن هذه الجهة .

ليلة الحادث ، في الصباح ، ايقظتني اختي من النوم .وفي الحقيقة كنت مستيقظا ، واعتقد ان خالتي نورية التي كانت برفقة زوجة اخي القتيلة هي التي نادت علينا تسألنا عن مصدر الاطلاقات النارية.خرجت فوجدت فرحة ممددة قرب التنور والطلقات تنفجر فيه. هذا هو ملخص اقوالي امام المحقق وهي لا تمثل الواقع كما تعلمون ياسادتي الحكام . لقد نسيت نفسي واعدتها عليكم ، فارجو المغفرة . لقد حلت بنا المصيبة فجأة فخطر لنا ان ندبر امرنا بشكل من الاشكال . الا ان الحقيقة لا يمكن ان تخفي ، لا يمكنها ان تختفي لسوء الحظ . لقد كنت نائما تلك الليلة في الدار حينما ايقظتني حوالي الساعة الرابعة او الخامسة صباحا ، اختي حليمة . همست بانها قد رأت شخصا يتراجع ويمر مخترقا الحوش بسرعة . قمت خارجا وذهبت الى غرفة أهلي النائمين ، ثم انتقلت الى غرفة القتيلة فرحة فرأيتها بمفردها. لقد تبين اخيرا ان اختي حليمة ،وهي بالمناسبة فتاة صغيرة حادة الطبع في السابعة عشرة من العمر ، كانت قد شهدت امامكم كيف انها رأت القتيلة فرحة نائمة مع شخص غريب وهي تمارس معه فعل الزنى فجاءت اليّ توقظني فارتديت ثيابي وخرجت استطلع الخبر . عندئذ رأيت فرحة تهيىء التنور . هكذا تمت الامور فعلا . كانت السماء بيضاء والتنور ثائرا يقذف حممه الحمراء . قالت لي فرحة ، دون ان تستدير ، شيئا عن الزنى والشرف والانتحار .كنت مرتبكا امام حكاياتها ، لكن دمي فار بسرعة فتناولت البندقية من حليمة ووجهتها نحو فرحة ثم ضغطت على الزناد . اطلقت نحوها طلقة واحدة فقط من هذه البندقية الصيدية التي وجدت قرب الجثة . لقد حشوتها بخردقة واحدة ، ولذلك تجدون ان الطلقة اخترقت راسها . كنت ادافع عن شرف العائلة المثلوم ، واني اطلب منكم ايها السادة الحكام ان تقدروا موقفي الكامل وان تأخذوا بعين الاعتبار والرحمة وضع عائلتي الكبيرة وكوني شخصا فقيرا بنيت نفسي وتعلمت القراءة والكتابة واني نائب ضابط سابق . لقد قتلت الزانية لانها زنت وليس لسبب اخر . وانتم تعلمون انها اعترفت لي بذلك وجها لوجه . وقفت امام التنور بثوبها الاحمر وهي تعلن بانها قد اخطأت ولوثت شرفنا كلنا . اما اقوال الشاهدة نورية ، من انها كانت مع فرحة في نفس الغرفة طوال الليل فلا قيمة لها . انها امرأة مختلة الشعور وان القتيلة اعترفت لي بنفسها انها قد ارتكبت جريمة الزنى .كذلك فان اختي حليمة رأتها في وضع مشين لا يقره الشرف ولا الشرع . امرأة شابة تستغل توقيف زوجها تتواعد عشيقها في نفس الليلة كي يأتيها بعد غروب الشمس الى دار الزوجية ليرتكبا جريمتهما الشنعاء . في

نفس الليلة ايها السادة الحكام ، اثناء ما كنا مهمومين جميعا بتوقيف اخي عبد الحمزة كانت هي ـ لا ادري باية وسيلة ـ تدبر امر لقائها مع المجرم . اني شخص غير متعلم ، همجي كما يقولون ، ولكني اعرف مكانتي ومقامي رغم اني لا ازال شابا لم اجاوز الثلاثين . لقد افهمت القتيلة جيدا بان جريمة الزنى لا يمكن ان تقع في دارنا . نحن عائلة شريفة محافظة من الاعراب ، لا تسمح بان يثلم شرفها . حاولت اقناعها بشتى الطرق ان تترك تصوراتها واوهامها جانبا والا تتهم احدا بأمور دنيئة . لكنها بقيت مصرة كمن اصابته جنة ، فتركتها ترجع الى غرفتها بانتظار ان تثوب الى رشدها وعدت اخبر حليمة بما جرى واغتسل. ولم اكن اكملت اغتسالي عندما دوت الطلقة ، فخرجت الى الحوش الغارق بفيض خفيف من النور . كانت شعلات التنور تتدافع من فمه والخالة نورية تواجهني بالسؤال عن القتيلة فرحة وعن الطلقات.اجبتها بشيء ما ثم دفعتها جانبا وركضت نحو غرفة اخي عبد الحمزة حيث وجدتهما معا . كانت قد قتلت ، او لعلها انتحرت . اخذت المسدس وعدت مع حليمة الى غرفتها . الا اني ازوغ مرة اخرى عن الحقيقة . هذه عادة عندنا لم تألفوها انتم ، سادتي الحكام ، وقد لا تطيقونها . اننا لا نستطيع ان نحصر اذهاننا في شيء واحد دائما . نحن ـ الاعراب الفقراء ـ نفكر على عدة طرق ، وبكلام اخرنحن قوم مشتتو العقول . نبدأ بفكرة او موقف واحد ثم لا نلبث قبل ان نعطي تكملة له ان ننتقل الى فكرة اخرى ذات رونق ابهى او أقرب الى القلب . ثم نقفز الى ما تشتاق اليه النفس مرة ثالثة . نحن اناس همج شرفاء ، نريد ان نعيش ونأكل خبزنا بسلام . وان كل ما تلوكه الالسن عنا هو محض افتراء . وانا اضافة لذلك شخص بريء كما سبق ان قلت مرارا . لقد دافعت عن شرفي كما يجب ان يدافع عنه اي رجل شريف متزوج وله عائلة كبيرة يفكر بمستقبلها . ان الشرف لا يتجزأ ، سواء كان موضوعه زنى ام فضيحة . لانه واحد ، وكلنا في الشرف سواسية . نحن مبتلون بان نكون شرفاء وان ندافع عن شرفنا بالدم . ولم افعل شيئا غير هذا ،ولا ادري كيف اشرح لسادتي الحكام الموقف المعقد . اني شخص بدوي غير مثقف دافعت بطريقتي الخاصة عن الشرف . وان الموقف رغم تعقيده بسيط في النهاية ليس فيه اشكال ، وساضع الحقائق امامكم للمرة الاخيرة .

كنا عائلة واحدة . اخي عبدالحمزة ومعه زوجته القتيلة فرحة في جهة من الدار ، وقربهما امي وابي ثم انا وعائلتي ، زوجة واربعة اطفال صغار . وبعد ذلك اختي لامي حليمة في غرفتها قرب البئر . التنور كان وسط الحوش تقريبا . يوم الحادث اوقف اخي . خالف تعاليم الاصلاح الزراعي رغم نصائحي فأوقفه المدير . جاءت الخالة نورية لتبيت مع زوجة اخي . حقائق بسيطة غير ملتبسة . ثم تسلل الى الدار عشيق القتيلة . لا ندري متى . وعند منتصف الليل او بعده بقليل بدأ شرف العائلة يثلم ويثلم . وهدأ الجميع حتى الفجر .. وقت اعداد الفطور والخبز . آنذاك انكشفت الامور المخزية دفعة واحدة. القتيلة فرحة كانت تمارس الفحشاء طوال الليل . وهي بعد ذلك لا تتعب وتنام ، بل تستيقظ قبل شروق الشمس كانها لم تفعل شيئا، ثم تأتي لتسترق النظر على الاخرين . ان الجريمة لا تنام في نفسها، ولقد ايقظتنا من رقادنا وهي ملتمعة العينين ثائرة الشعر لتخبرنا بان الاولى بها ان تنتحر من ان ترى الفحشاء تدخل الى هذه الدار .كانها لم تكتف بجريمتها المنكرة تلك وزناها ! عند ذاك اجابتها حليمة بانها قد شاهدتها جيدا مع عشيقها عاريين يمارسان الزنى طوال الليل ، فصعقت . اذهلتها الحقيقة المرة والتبس عليها ثم خرجت هاربة تضع يدها على فمها . لم يبق لي اذن بعد كل هذا الا ان ازيل وصمة عارنا بدمها . هكذا يمسح العار في ديارنا يا سادتي الحكام .. بدماء النساء . تناولت بندقيتي الصيدية ولبست ثم خرجت اليها . وكما اخبرتكم كانت واقفة تؤجج نار التنور تحت سماء الفجر .كنا وحيدين . قالت لي بوضوح انها ستنتحر لانها لا تطيق ان ترى جريمة الزنى باقية بلا عقاب . فلم اجد بدا من اطلاق النار عليها من بندقيتي الصيدية هذه . ثم رمت حليمة من بعد ذلك وبحسن نية حفنة من الخراطيش في التنور الملتهب فتلاحقت الانفجارات وايقظت اهل الدار .

هذه هي الحقيقة يا سادتي ، وكل ما يقال ضدها هو محض افتراء وتشويه مقصود .

كذب ما تقوله نورية انها لازمت القتيلة فرحة كل ساعات الليل، وانها لم تر احدا يدخل عليها او يمارس معها الزنى . اسألوها كيف لم ترها اذن وهي تستيقظ فجرا لتأتي تتلصص على الناس الشرفاء ؟ من طلب منها ان تعد الفطور وتخبز الخبز وتشعل التنور ؟ واذا ارادت ان تفعل ذلك من تلقاء نفسها وبغياب زوجها ودون باعث دنيء ، فما سبب مجيئها الى غرفة حليمة ؟؟ ومتى كانت حليمة مساعدة لها في اعداد الفطور ؟

كذب ما تدعيه نورية انها رأت القتيلة فرحة تشير بيدها نحونا .. نحوي ، وتحاول ان تتكلم فتدهمها حشرجات الموت وتسكتها . هراء كل هذا ، لاني انا الذي جررتها من قرب التنور حيث انتحرت .. وذهبت بها الى الغرفة ثم عدت بها الى مكانها الاول . انا الذي يعلم اين سقطت القتيلة فرحة واين فارقت الحياة .

كذب ايضا ما احتواه التقرير الطبي عن اصابة القتيلة فرحة بطلقة مسدس في رأسها اودت بها . لقد ضغطت على الزناد ،وانا اعرف تمام المعرفة اي سلاح كان بيدي .

كذب وافتراء ما يقال عن تدخل حليمة . ابعدوها استحلفكم بالله عن هذه الجريمة . انها تجهل كل شيء عنها . انا هو المجرم ـ اذا اردتم ـ الذي دافع عن شرفه واسكت تلك الزانية المرائية الى الابد . وانا بريء يا سادتي الحكام ، اطلب الرأفة بي عند اصدار الحكم . لقد ارتكبت جريمة القتل بدافع شريف ونبيل ، فكونوا شرفاء معي انتم ايضا وخففوا من احكامكم عليّ. ان هنالك من سيحزن لفراقي . صدقوني . اما انا .. فواحسرتاه .

هذه هي الحقيقة ، كل الحقيقة .

بغداد — فؤاد التكرلي

مكتبه النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .